فجهز جيشاً بقوة ٢٠,٠٠٠ ، وناط قيادته بابنه الأمير حسين باشا وأنزله فى مصوع ؛ ولما تقدم قابله الأحباش بقوة ٢٠٠,٠٠٠ جندى ، وفى المعركة التى نشبت فى جرة انكسر الجيش المصرى بعد أن خسر ١٣,٠٠٠ رجل ، فوقع الأمير حسين باشا فى الأسر مع هيئة أركانه ، ولم يخل الأحباش سبيلهم إلا مقابل فدية من المال

والغريب فى هذه الحركات أن الأجانب كانوا يتولون قيادة الجيش كأن المصريين من أهل البلاد لا يستطيعون القيادة ، بينما التاريخ يشهد لهم ببراعتهم فى ذلك ، فالجيش الأول كان قائده موزنجر باشا ، وكان يقود الجيش الثانى ضابط دنمركى الأصل ، أما رئيس أركان الجيش الثالث وأركانه فكانوا اميركيين

وفى الوقت ذاته كان المسلمون فى السودان بقيادة المهدى يهاجمون الحبشة من الشمال ، فدخلوا جوندار وأحرقوها ، وكان من أمر ذلك أن أرغم يوحانس المسلمين القاطنين فى الحبشة على الخروج منها ، وأدى ذلك إلى هجرة كثير من المسلمين من الحبشة بعد أن كانوا متنعمين فيها ، فتشتتوا هنا وهناك ؛ أما الذين بقوا فيها فاضطهدهم الأحباش حتى اضطر بعضهم إلى التنصر ، ولو لم ينزل الطليان إلى الساحة الاستعمارية فى بلاد الحبشة لظل المسلمون مضطهدين ، إلا أن محاولة الطليان التوغل فى بلاد الحبشة اضطرت ملوك الحبشة إلى التساهل مع المسلمين تمهيداً لتوحيد المساعى ازاء هذا العدو الجديد

وبعد أن احتل البريطانيون أرض مصر لم يتدخلوا فى الحروب التى وقعت بين السودانيين والأحباش . ولكى ينتقم يوحانس لوقعة جوندار جهز جيشاً كبيراً وتقدم على رأسه نحو قوات المهدى ، وفى المعركة التى وقعت فى متمة ١٣ آذار أواخر (مارس) سنة ١٨٨٩ وقع جريحاً ومات فانكسر جيشه

والحقيقة أن قيام المهدى وبسط نفوذه على السودان وانتصاره على الأحباش جعل البريطانيين يفكرون فى العاقبة ، لأن القوات البريطانية والمصرية وحدها لم تكن كافية للتغلب عليه

ولعل نزول الطليان إلى الساحة كان بتشويق من البريطانيين للتغلب على المهدى من جهة ولمشاغلة الحبشة بقوات جديدة من جهة أخرى لكيلا تسيطر دولة قوية على مياه النيل فتهدد مصالح البريطانيين المتوقعة فى السودان

(يتبع) طه الهاشمى

مذاهب الفلسفة

المذهب الطبيعى*

للأستاذ زكى نجيب محمود

هو ضرب من ضروب الفكر ونحو من أنحاء النظر ، لا يذهب فى بحثه وراء حجب الطبيعة وأستارها ، بل يحصر نفسه فى نطاق الطبيعة وحدها ، يتقصى بالنظر ما شاء من وجوهها ، ثم يقنع بهذا فلا يعدوه قيد أنملة . عنده أن الحقيقة التى لا حقيقة بعدها هى هذه الطبيعة التى تراها بعينك وتلمسها بيدك ، هى هذه الأرض وتلك السماء وما بينهما من أحياء وأشياء ؛ أما أن تبعثك الطُّلَعة فتحاول أن تنفذ ببصرك إلى ما وراء ذلك ، زاعماً أن ما تدركه الحواس عبث باطل ، وأن الحقيقة الخالدة هى شىء مستور وراء هذه الحجب الصفيقة ، فخداع وجهل فى رأى هذا المذهب ، إذ يرى أشياعه أن الطبيعة لا تبطن شيئاً وتظهر شيئاً آخر ، بل ها هى ذى قد عرضت بضاعتها لمن شاء تحت السمع والبصر ، وهى تسير وفقاً لقانون صارم جازم لا يشذ ولا يلين ، فهو يسيطر بقوته على الكون بكل ما يحوى بين دفتيه ؛ ثم ينهانا أتباع هذا المذهب أن نلقى بالا الى ما قد يزعمه الزاعمون أن هنالك فوق الطبيعة حقيقة خالدة يدركها الفكر وتقصر عن إدراكها الحواس ، فهم لا يصدقون أن يكون ثمت غير ما نرى أو أن يكون فى الطبيعة شىء لا يخضع لقانونها خضوع الجماد الصامت ، ولا يستثنون من قاعدتهم الانسان بكل ما فيه من حياة وفكر وخيال لأنه فى رأيهم هباءة فى يد الطبيعة تطوح بها عنة أو يسرة كيف شاء لها قانونها الجبار ، وإن الانسان ليخدع نفسه حين يوهمها أنها أرفع من الجماد منزلة وأسمى مقاماً ؛ فان اعترضت على رجال المذهب الطبيعى بأن قانون الطبيعة لا يفسر كل شىء ، وأن هنالك آلافا من الحقائق التى تنتظر الشرح والتعليل أجابوك أن ذلك رهين بالعلم وحده . فلن يفتأ العلم يجد فى كشفها ويسعى ، ولن تزال هى تبدو فى ضوئه واحدة فى إثر واحدة

(*) يحتاج بعض ذوى العقول الضعيفة أن ننبه الى أن هذه الفصول انما قصدت للدراسة وحدها ، وبديهى أنها لا تعبر لكاتبها عن رأى خاص

وينقسم المذهب الطبيعي الى شعب تتعدد بتعدد إدراك الانسان لماهية المادة التي تملأ الكون ؛ فان رأيتَ أن قوام الطبيعة ذوات مادية تتحرك في المكان ، وأن كل ظاهرة من ظواهر الطبيعة لا تعدو أن تكون مجموعة متراكمة من تلك الذرات فذلك هو المذهب المادي ؛ وان اعتبرت المادة نفسها ضرباً من ضروب الطاقة والقوة ، فذلك هو المذهب الطاقي Energism ؛ وأما إذا غضضت البصر عن أصل المادة الأول ، ونظرت الى الحقائق كما هي ، مرتبطاً بعضها ببعض ارتباط العلة بالمعلول ، فذلك هو ما يسمى بالمذهب الوضعي . . . وكثيراً ما يطلق اسم « المادية » على هذه الشعوب كلها . لأنها مهما اختلفت فهي لم تزد على أن تناولت ظواهر الطبيعة المادية بالشرح والتعليل

وإن هذا المذهب الطبيعي ليبلغ أقصى قوته حينما يقف موقف الانكار والرفض بازاء ما يتعلق به الانسان من صنوف العقائد وضروب الخيال ، فهو لا يتردد في أن يتناول الأديان بكفه الباردة فيسحقها بين أنامله ، لأنه لا يرضيه أن ينظر الى الأشياء والحقائق نظرة مجردة عارية من كل ما ألبسها الانسان من زخرف العقيدة وطلاء الخيال ، فبقذفة واحدة ألقى في اليم كل ما أنتج الفكر البشري من آراء عن عالم الغيب المجهول ، ولعله بذلك قد كفى نفسه مؤونة البحث في هذا المطلب الشاق العسير

ومادام هذا المذهب الفلسفي قد رفض عالم الغيب رفضاً قاطعاً ، فهو إذن لا يعترف بالله إلا أن يكون ذلك هو الطبيعة نفسها ، أو الانسانية ، أو ماشئت من ظواهر الكون المحسوس ؛ وهو كذلك لا يقر الخلود إلا إذا قُصد به آثار الانسان الخالدة وظهوره في أعقابه وما إلى ذلك من ضروب البقاء ؛ أما أن يذهب الظن بالانسان أنه باق بعد الحياة بقاء روحانياً فوهم خاطئ في رأي هذا المذهب ، إذ ما بقاؤه وهذا جسده قد تبدد أشتاتاً فكان منه الشجر والحجر ؟ ستقول إنه باق بروحه دون جسده ، ولكن ما هو ذلك الروح ؟ أهو جزء من الطبيعة أوعنصر شاذ لا يستقيم مع مادتها ولا يخضع لقانونها ؟ اللهم إن كان هذا فلا روح ، لأنه ليس في الطبيعة إلا الطبيعة نفسها !

وهذه الطبيعة تسير وفق سنن معروفة ثابتة لا تتغير ولا تتبدل ، فلكل ظاهرة من ظواهرها أسباب لا بد أن تنتج مسبباتها ، دون أن تحول بينها وبين ذلك معجزة أو خارقة ، ودون أن يكون في مقدور الانسان أن يغير من مجراها بما يزعم لنفسه من إرادة حرة ، فليس الانسان حراً فيما يفعل وفيما يترك ، إنما هو آلة مجبرة على السير في طريق رسمتها له الطبيعة كما رسمتها للأنهار والأشجار والأحجار والكواكب وسائر ألوان الجماد . ولكن الانسان المغرور كثيراً ما يلقى في روع نفسه أنه حر التصرف برغم أنف الطبيعة ، فيقول مثلاً : إني لم أقرر بعد ماذا أصنع في كذا وكذا ، وفي المكين أن مجموعة الذرات التي تتكون منها مادته قد قررت له مايصنع — جهل بذلك أو علم — ولم تكن فيما قررت بمعزل عن سائر الكون ، بل اشتركت في تقريره مع العالم كله ، مع الطبيعة بأسرها . فخفف من غلوائك أيها الانسان ، واعلم أنك لا بد فاعل ما أريد لك أن تفعله ، إذ ليس لك عن فعله منصرف ولا محيص

ومن منا لا يلوى شفتيه من الغضب ، كلا ، بل من ذا الذي لا يبتسم ساخراً من هذا المذهب الذي يريد أن ينتزع من الانسان أعز جوانبه وأنفس عناصره ؟ إنه يريد أن يسلبه إرادته فاذا هو صخرة تتحدر من قمة الحياة إلى واديها مدفوعة بقوة القانون ! وليس له أن يقف حيث شاء ولا أن يسلك من السبل ما يشاء ! كيف أكون مكتوف الارادة وهأنذا أحب هذا فأعمله وأكره ذلك فأتركه ؟ فماذا تسمي هذا إن لم يكن إرادة حرة مطلقة التصرف ؟ ولكن هاك ما يجيبنا به « سبنسر » : نعم إنك تعمل ما تحب وتترك مالا تحب ، ولكن هل علمت أنك لا تحب إلا ما رغبت فيه الطبيعة ؟ إن مولاتك الطبيعة قد حببتك فيما تراه هي صالحاً لسيرها ، ونفّرتك مما رأته مضراً بها معطلاً لها عن المضي في سبيلها . فما أحببت أن تعمله إن هو إلا ما أرادتك الطبيعة على حبه : « انك تستطيع أن تعمل كما تحب ، ولكنك لا تستطيع أن تحب كما تحب » . فاختيارك هذا الشيء ورفضك ذاك ، هو الوسيلة التي تتخذها الطبيعة لتنفيذ ارادتها في سلوك الانسان

وأين المفر من الطبيعة وهي لا تني تذكرنا بما لها علينا من نفوذ وسلطان ؟ فطر بالخيال إلى حيث شئت ، فأنت مضطر آخر الأمر أن تنزل في معمعان الحياة لكي تضمك بين مطرقة

الحقائق الواقعة وسدادها ، تنظمك فى سلكها ، ولا تخلى بينك وبين خيالك ! تحدّ الطبيعة ما استطعت إلى تحديها من سبيل ، وسترى نفسك بعد حين قصير مرغماً على التسليم والخضوع ، وإلا فماذا أنت صانع أمام غائلة الجوع سوى أن تقتات بما يقيم الأود ؟ ثم ماذا أنت صانع إذا أضناك الاجهاد وأعياك العمل إلا أن تسلم بضرورة النعاس ؟ ثم ماذا تجدى ارادتك مهما بلغت قوتها أمام الموت إذا دنا الأجل ؟ فالطعام والشراب والنوم والموت اعتراف متواصل بخضوع الانسان لضرورات الطبيعة مهما يكن طاغياً جباراً

وكأنى بالعلوم جميعها تناصر هذا المذهب وتؤيده ، وتكاد تضطر العقل اضطرارا إلى اليقين بأن ما يقع فى الطبيعة من أحداث مهما اختلف لونها وتباين شكلها خاضع للعلم وقوانينه التى تضرب بنفوذها على أطراف الكون فلا تدع مجالا ينفذ اليه شىء من القوة المزعومة فيما وراء الطبيعة . وإن احتججت على العلم بأنه مبالغ فى شأن نفسه مسرف فى تقدير عمله ، وأنه لا يزال قاصراً عن إدراك الحقائق كلها ، فكيف يحق له أن ينكر شيئاً قد يكون جزءا مما لم يدركه بعد ؟ نقول إن احتججت على العلم بهذا أجابك فى يقين ثابت ، وكله أمل ورجاء : هأنذا أسير وأتقدم ، ويستحيل ألا يؤدى هذا السير المطرد إلى حل ألغاز الكون كلها ، ولا بد لى أن أصل يوماً إلى غاية الطريق ، فان لم يكن ذلك بعد حين قريب فامتداد الزمن كفيل بكل شىء ، وإن العلم ليتمسك بتطبيق قانون «العلة الواحدة» Law of Parsimony الذى صاغه « وليام أوكام » ، والذى مؤداه أن ما أمكن تعليله بعلة ما لا يجوز تعليله بعلة أخرى . وبناء على هذا القانون لا ينبغى أن نضيف إلى الظواهر الطبيعية التى أمكن تعليلها بقوانين العلم عللا أخرى مما وراء الطبيعة ، فان تمكن العلم أن يتتبع حقائق الكون بالتفسير واحدة فواحدة وجب حتما ألا نتردد فى انكار كل قوة أخرى

ولكن إذا كان أنصار هذا المذهب يريدون أن يحتكموا إلى العلم فى كل شىء ، وأن يفسروا به كل ظاهرة من ظواهر الوجود ، فماذا هم قائلون فى تعليل ظاهرتى الحياة والعقل اللتين تبدوان كأنهما شاذتان نابيتان لا تخضعان لقوانين الطبيعة التى تنتظم الجماد ؟ وأين الجماد من الحياة المتوثبة والعقل المفكر ؟ إنه إن صح مذهبهم للزم أن تكون الحياة قد تفرعت من الجماد الذى لا حياة فيه ، ويستحيل أن يتفرع شىء من أصل لا يحتويه ! إنك تستطيع أن تعلل بالعلم كل ما هو آلى رتيب ، ولكن كيف بالحياة عامة والعقل بنوع خاص ، وبينهما وبين الجماد الآلى من مسافة الخلف ما يكاد يجعلهما ضدين نقيضين ؟

إن للكائنات الحية طابعاً يميزها عن الجماد تميزا واضحاً ، ولعل خير ما يوضح ذلك الطابع المميز هو كلمة « بنفسها » . فالكائن الحى يبنى نفسه بنفسه ، ويصلح عطبه بنفسه ، ويدبر أمره بنفسه ، ويعمل على حفظ بقائه بنفسه ؛ نعم هنالك آلات تطعم نفسها ولكنها لا تنمو بما تطعم ، وهنالك آلات تكتب من تلقاء نفسها ، وسابحات فى الماء تقود نفسها ، ولكن هذه جميعاً لا تصلح لنفسها ما يصيبها من عطب ، ولا تستطيع أن تلائم بين دخيلة نفسها وبين الظروف الخارجية المحيطة بها كما يفعل الكائن الحى ؛ وليس بين الآلات أو صنوف الجماد ما ينشىء فى باطنه نواة فى مقدورها أن تنمو إلى ما يشبه الأصل الذى تفرعت منه ، ثم يكون فيها بدورها قوة انشاء نواة أخرى تعيد تاريخها وهكذا . . . . وأجدر من هذا كله بالذكر من خصائص الحياة التى تنفرد بها وتتميز عن الجماد هو أن الحياة فى كل فرد من الأحياء لا تحصر عملها فى حدود هذا الفرد الذى هى حالة فيه ، بل يمتد نطاقها حتى يشمل النوع بأسره ، أعنى أن الحياة فى كل فرد لا تكتفى بحفظ بقائها هى ، بل تعمل على حفظ النوع كله

تلك هى خصائص الحياة ؛ أما العقل فطابعه الذى يميزه هو علمه بالنفع والضرر ، وهما ما نسميهما باللذة والألم ؛ فكل الكائنات الشاعرة تعرف ما ينفعها فتقبل عليه وما يضرها فتنفر منه ، هذا فضلا عما لها من قوة التفكير التى تستطيع بها أن تكون آراء عن الأشياء الخارجية ثم اتخاذ تلك الآراء وسيلة إلى فهم حقائق تلك الأشياء والوصول إلى ما يسيرها من قوانين وما تقصد اليه من أغراض

(يتبع)

زكى نجيب محمود